رحيل الشاعر شوقي أبي شقرا... صائغ الغرائبيات الطفولية

بقي يذكّر بأنه أول من كتب قصيدة النثر وابتكر مصطلحها



من اليمين... أدونيس وشوقي أبي شقرا وأنسي الحاج ويوسف الخال

بيروت: سوسن الأبطح

نُشر: 16:18-10 أكتوبر 2024 م . 07 ربيع الثاني 1446 هـ

شاعر رائد، مترجم، صحافي، صائغ نصوص... تعدّدت المهمات، وبقي شوقي أبي شقرا، الذي غادرنا عن عمر 89 سنة، أستاذاً لكثيرين. رحلته المهنية العصامية بقسوتها، جعلت منه سنداً للمبتدئين والطموحين، ومعيناً لانطلاقتهم الأولى، وهؤلاء لا يزالون يتذكّرون حنوّه. شاعر سوريالي بامتياز، عُرف بتراكيبه الفريدة، وعشقه للّعب بالصور، وكأنها «بازل» (Puzzle) في يد طفل لا يملّ التجريب. بقي كذلك حتى سنواته الأخيرة، يؤلّف وينشر، ويتابع، في محاولة للقبض على ما بقي من زمن.

وُلد أبي شقرا في بيروت، لكنه بقي ابن القرية التي عاش فيها طفولته، يعود إليها في شهور الصيف. هي بمفرداتها، وطبيعتها، وحيواناتها لم تغادره قَطّ.

نشأ في رشميا ومزرعة الشوف، بسبب عمل والده دركياً في المنطقة، قبل أن يفقده طفلاً إثر حادث سير، وسيعيش من يومها في يُتمٍ مزمن، وكأنه لسرعة ما كبر لا يريد إلا أن يعود إلى ذلك الزمن المفقود. وفي شعره المليء بالبحث عن غرائبية الصور ما يشي بذلك.

تحدّث دون حرج عن نفسه «المقهورة في الطفولة»، وانتقال العائلة إلى بيروت، بعد موت الوالد، وجلافة حياته في المدرسة الداخلية دون حنان أو رحمة، هو وأخوه الصغير، كأنه غادر فردوساً لن يعود إليه مرة أخرى: «والدنا كان عنده شفقة كيانية علينا، كما كلّ أب محب. كان يريد لنا أن ننتقل من رشميا وتتحسّن حياتنا. هذا كله افتقدناه. ثم القهر مع احتكاكي بالعالم حين بدأت العمل ودخلت عالم الصحافة».

في عام 1965 ترك «مدرسة الحكمة»، عمل أستاذاً، وبقي قلقاً على أيامه ومستقبله، وما بمقدوره أن يفعل. هو الذي بدأ تجاربه الشعرية باكراً، كاتباً تحت وطأة الحزن والضياع. يقول: «رأيت أن الشعر هو ملاذي، وفي قبضة يدي».

محاولاته الشعرية الأولى كانت بالفرنسية. جرّب القصيدة العمودية، التي طلّقها بعد ذلك طلاقاً بائناً، قبل أن يكتب على التفعيلة، ويرسو على قصيدة النثر، التي يُعدّ رائدها، نافياً أن يكون أنسي الحاج هو الأول في المجال.

قال أبي شقرا في مقابلة مع ناشره سليمان بختي قبيل وفاته: «كنت أول من كتب قصيدة النثر، وأول من أطلق المصطلح. في 28 نيسان (أبريل) 1959 نشرت أربع قصائد في جريدة (النهار) تحت عنوان (رب البيت الصغير)، وقلت في مطلع القصيدة: (القهوة على الأرض ما الصراخ ورب البيت يحزو... من أوحى للزوار أن يأتوا عنده للمحة لسهرة؟ القهوة ثمينة ومعاشه خفيف كمفكرة لا يقوى أن يخدم ويرحب والستائر لا تغطي الشمس والفقر)».

هو أحد مؤسسي «حلقة الثريا» الأدبية عام 1957، مع جورج غانم، وإدمون رزق، وميشال نعمة، والمشاركين بندواتها ومحاضراتها ونقاشاتها. ثم التحق بمجلة «شعر»، منذ انطلاقتها الأولى مع يوسف الخال. هناك التقى بدر شاكر السيّاب، وجبرا إبراهيم جبرا، ونازك الملائكة، وأدونيس، وآخرين. كانت لمساته حين كان مدير تحرير للمجلة تمرّ على القصائد، في شيء من المبالغة في التعديل، وهو ما أسماه «تنظيفاً للقصيدة»، ما كان يستفزّ أدونيس. لكن أبي شقرا اعتبر أنه كان يؤدي مهمته بصفته حارساً للمجلة، ومرشدها الجمالي والشعري والأدبي. ويتباهى بدوره: «كلهم عبروا مع حبر قلمي».

على أهمية مرحلة مجلة «شعر»، جاء دخول شوقي أبي شقرا إلى جريدة «النهار» آتياً من جريدة «الزمان»، حاملاً مهاراته في التحرير، محطة مفصلية في حياته، حيث سيصبح التنظيف صياغة حقيقية، أو قل ما يشبه إعادة كتابة. ويروي في مذكراته التي اعتبرها «شهادة للتاريخ»، أنه هو الذي أوجد

الصفحة الثقافية في جريدة «النهار»، بصيغتها المنتظمة، وجعلها صفحة عصرية، أدخل عليها المسرح والرسم ومقالات النقد السينمائي التي كان يكتبها بالفرنسية سمير نصري، ويترجمها له إلى العربية.

في «النهار» التقى بكثير من الشعراء والأدباء المعروفين الذين كانوا يتردّدون على الجريدة، وهناك استقبل الشبان اليانعين الراغبين في الكتابة، فنشر لهم وصحّح، وصار بعضهم نجوماً. من بين هؤلاء سعدي يوسف الذي نشر قصيدة له على صفحات «النهار» يوم كان عمره 18 عاماً.

الإحساس بالقهر، عند أبي شقرا، كان قرين إحساسه بالظلم. شعور عزّزه مساره الشاق في عالم الأدب، وفي مهنة الصحافة الثقافية، التي بدت له عاقة في النهاية. عمل دائماً بشغف وكدّ، واجداً في ذلك تعويضاً عن شعوره القديم بالفَقد الذي لم يغادره. مساره برمته، كان نوعاً من التّحدي، وكأنه لم يتوقف عن مصارعة المتاعب التي لازمته في طفولته القاسية. وجد في الأدب، وتدجين التراكيب، ومراوغة القارئ وإدهاشه بما لم يكن ينتظر من المفردات، نوعاً من الانتقام الشعري ممن خذلوه، أو انتزعوا منه سمة الريادة ظلماً، وهو لم يتوقف يوماً عن التذكير، والمطالبة بها.

ترجم قصائد عن الفرنسية لشعراء كبار مثل: رامبو، ولوترىامون، وريفردي، انتهج فيها طريقته في التنظيف والصياغة التي اتبعها في تحرير القصائد العربية. وأصدر العديد من هذه الترجمات في كتاب صدر عن «دار نلسن». وهي الدار التي أصدرت مذكراته، وديواناً جديداً له بعد 16 عاماً من الغياب الشعري حمل عنوان «عندنا الآهة والأغنية وجارنا المطرب الصدى»، كما أعادت إصدار ديوان قديم له كان قد نشره في النصف الأول من القرن الفائت، بعنوان «سنجاب يقع من البرج». ومن دواوينه الأولى «أكياس الفقراء»، ومن ثم «خطوات الملك» تضمنا قصائد «التفعيلة»، وله أيضاً «تتساقط الثمار والطيور»، و«ليس الورقة»، و«ماء إلى الحصان والعائلة». وحالياً، تتحضّر «دار نلسن» لإصدار كتاب له، يضمّ بين دفتيه نصوص أبي شقرا التي كتبها بمناسبة وفاة كبار الكتّاب الذين رافقت كلماته رحيلهم.

ويرى ناشره سليمان بختي في حديث لـ«الشرق الأوسط» أن «أبي شقرا خسارة لا تعوّض. شاعر منفتح على مختلف التجارب، عنده إيمان عميق بالحرية. بقي حتى النهاية فضولياً، مهتماً بالاطلاع على التجارب الشابة في الشعر، ومراقبة التحولات. حتى في ثمانيناته كان يفاجئنا بالطريقة التي يفكر بها، وبصياغاته اللغوية المفاجئة، وكأنما قصيدته عناقيد متناسلة من الصور، كل صورة تأخذك إلى الأخرى، لتصبح هي لبّ القصيدة وجوهرها». ويتحدث بختي عن قاموس شعري خاص بأبي شقرا، مستلهم من الطبيعة واللاهوت، والجغرافيا اللبنانية والطفولة. ويلفت كذلك إلى دور أبي شقرا في التحرير لكبار الكتّاب: «فهو الذي حرّر ديوان بدر شاكر السيّاب الشهير (أنشودة المطر) يوم صدر عن (دار شعر)، وروى لنا أنه حذف ربعه، بموافقة السيّاب نفسه، قبل أن يبصر النور».

مضى صاحب «صلاة الاشتياق» بعد أن اجتاز «رحلة غنائية، وجودية، جمالية» كما يقول ناشره، ولم يتخلَّ يوماً عن قلقه، ومراجعة نصوصه بدقة، والحرص على ابتكار عناوين شائقة تحفظ للنصوص ألقها ورهافتها.

ويلخص أبي شقرا في سطرين سرّ مهارته الطفولية في صياغة الغرائبي حتى وهو يقترب من تسعينه، حين يقول: «يهمني التركيب قبل الموضوع. الكيفية في اللعب على الشكل قبل المضمون. وعندما أقول حركة الشكل، فهذا يعني مضموناً آخر. كل الفنون في النهاية تطمح إلى الشعر. طموح كل كتابة أن تصل إلى النفحة الشعرية. واللذّة دائماً شعرية. ولا يمكن أن تشفى طعنة الشعر إلا بالغفران».

مواضيع شخصيات ثقافية | بيروت | أخبار لبنان | لبنان
